الغـــــــايات — ٥

وعقبات الغايات أيا كان نوعها وأنى يكون وضعها شجاً يعترض مدارج الأنفاس ، ووحرة تهد شرا سيف الصدور بلا مساس . فالعقبة لفظ تنطق به ثقيلا على لهاثك، ومعنى توقف عليه مر شكاتك فى كل أوقاتك . تذكرها النفس التى ظالما ضربت فى ليلها الدامس وظلامها الطامس، فتتقطع حسرات وتصعد زفرات وتقول « إن فى ذلك لآيات » أول من صادفنا من الخلق أبونا آدم عليه السلام ، ثم صارت سنة إلى ذريته « وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » وسواء أكانت نفسية أو عجمة فالبطولة لقب يتسمى به مناجزها ويعطاه جائزها . لها فضل جلى على هؤلاء الذين كانوا منها بمأمن إذ فتحت آذانهم وفتقت أذهانهم . كان هذا جبانا فعلمته الكر والفر، وكان ذاك مهانا فأريته الفرع والدر ، ولبس بها المغتر ثياب المعتر، وأوقفت الجبار قيدا ولم تمهله رويدا . فى كل يوم تأتينا سيناها بأحاديث كالشمس وضحاها ، يسوءنا مغزاها ، أو يسرنا مرماها . فهذا الولد عقبة . وجهه أبوه إلى خير فعاد صفر اليدين ، ثم انغمس فى لذاته واسترسل فى شهواته حتى ذهب به الشراب والشباب . التمسه أبوه معينا فلم يجده ، وتمناه فقيدا فلم يفقده ، ثم راح يحمل عنه مايقع فيه ، ويساهم فى مصائبه بقدر مالولد فى قلب أبيه . كان الأب غنيا فافتقر ، وكان فى رخاء فأعسر . وأصبح الولد وليس فى قلبه حنان يكفر به عن خطيئته ويخفف على أبيه وقع جريرته ، فتمثل الأب بقول القائل بالأمس:

فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

وهذه المرأة عقبة : فهى لاتفهم معنى لحياتها . تسىء إلى جاراتها ، وتهمل نظافة أبنائها ، فجار مشغولة أو جاهلة مجهولة ، منزلها جحر ضب ، وخطبها أى خطب ، لاتسر الرجل إذا حزبه ضير ، ولا تبسم إذا جذبه خير . يتمنى بعلها أن تكفأ من حالق، أو تهوى من شاهق، أو ينقض عليها بنيان كالهرم ، أو تصبح جزرا للعقبان والرخم . وهى متعلمة نقرأ ماتبذل وتكتب فتتغزل ، تتقن النفاق وتتفنن فى وسائل الانفاق ، تعيى الرجل لأنها ذات وجدان رقيق ونظر دقيق ، حبها قبة وطريقتها سنة . رقق التعليم شعورها للشر، ودربها على التقليد لتفعل مانريد ، فلا حياء ولا دين ولاحرج على الآثمين . كرهها الزوج وضاق بها وحقرها وبرم بخطبها . يعض بنان ندمه على أخرى من دمه ، ويضرب يده على فيه، لافتتانه

يزبرجها وانخداعه ببهرجها، يقول فى الناس إذا سئل عنها انتقاما منها:

وما غرنى إلا خضاب بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
تزوجتها قبل الهلال بليلة ... فكان عناء كله ذلك الشهر

وهذا الحاكم عقبة: أهمل أمته فهو منصرف عنها؛ بعيد منها؛ بابه أمنع من عقاب الجو، وقلبه مستعار من تمام الدو ينطبق عليه قول القائل:

قد كان بابك مفتوحا لقاصده ... واليوم أوصد دون القاصد الباب

له عيون تصور له أمته بصورة جرفاء شوهاء كالعجوز الشمطاء. تثير الحاكم من الأقيال عليها، ولم يستسغ الركون إليها، فلا يبالى أخيم عليها الرخاء أو ذهبت صرخة فى فضاء. فى لذاذته لاه كأنه الحاكم بأمر الله. يسر له القوم البغض والجفاء المحض، ويتربصون به الدوائر والبركان الثائر. والعيون يرتمون فى غيهم ويستمرئون مرعى بغيهم، والحاكم فى تياره لا يحفل بقول نصر بن سيار:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

وأمته تستيقظ بعد غفلتها وتتغير له صفحتها، فتهب بعد لوم وتخلع ثياب النوم، وتستعير من فرنسا عزما كالأساطيل وتحطم أسوار البستيل، ثم يهدأ العاصف والبرق الخاطف ويدب فى عروقها دم الحياة بعد أن كان يتعثر؛ ويقوى عظمها وقد كاد أن يتكسر؛ وإذا هى تنشد قول المتنبى:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز فى لظى وذر الذل .... ولو كان فى جنان الخلود

وهذا الفقر عقبة: حجزنى عن طلبتى ووقف حائلا بينى وبين غايتى فواهى موفورة وأمالى منظرمة ومنثورة، والمال الذى هو عصب الأمور، وجناح الطيور وكفيل كل صبور، معرض عنى ناء بجانبه مشتغل بأقل منى، يسوق له من خيله وكتائبه. كم كنت أود أن أمرح فى خير عيش أو أكون رب جيش، فأجلب لأمتى نافعاً أو أدفع عنها واقعاً، بدل أن أمسيت كهيض الجناح يقبع فى وكره حتى يأتى الله بأمره، ولكنى معتزم أن أتحرر من هذا القيد وأغور وراء كل صيد، حتى أروى من نفسى هذا الصدى، أو أجد على النار هدى، ولنا فى العظماء أسوة ولسيرهم منا حفوة، وهذا قول السكاكى:

لا تحسبوا قد مضى عهد العلى فلقد ... يكون ما لم يكن يوما بحسبان

ولا أقل من أن أوانى الدرس واملأ بالعلم زوايا النفس حتى لا تحرم بلادى من لسانى

ومن ثمرات جنانى ، فأن مما يشفى الفؤاد أن تتقدم بما عندك من زاد ، إن لم يكن اليوم شهياً فقد يضحى رطباً جنياً ، أرأيت إلى عبد الحميد كيف تنقل به الحال حتى صار طائراً أغريداً ؟ ومصر فى حياة الكنيرين عقبة : فهذا مصرى عجم عود الدهر ، وأكسبه اليوم والشهر ، زاد كالقادة بصيرة وقادة وفريحة نقادة . بير الكنيرين من أصحاب المذهب الذقيس والمطوقين فى باريس .

لو أسندت اليه أمور مهمة ومشاكل معضلة لكان أنفذ من سهم فى مساله وأقن أن يعبر البحر إلى ساحل جده « آمون » وقسه تطاف لدون ، وما هو بنعمة ربه بمجنون ، ولكنه فى بلاد العجائب والعجب .

يتساءل الناس عنه من أين حضر وكم من الشهادات استحضر ؟ فان وجدوا جواباً ، قالوا وهل له ركن يعول عليه ، وملجأ يلجأ إليه ، حتى يقدم عند استخدامه ولا يبوء بالخيبة ، وهو لا تحترم عبقريته . ولا فكرته ورويته إن لم يكن صاحب كيت وكيت . أو رب بيت أو محل امل ولبث ؟ إنه فائز والقنوط حليفه وناقم والتهمة ألفه . لا يتذكر بلاده إلا ساه بالطعن وسامها الهون . يذوب أسفاً كلما رأى فتاً من أسعد الناس حظاً ، ورأى الرؤساء يزوغون أمام النبوغ ، وإن كل فتان مزعزع الأركان مهدم البنيان ، ورأى اضطراب الحال لا يختلف فيه اثنان :

ولربما رجح الخسيس من الحصى ... بالدر عند تراجح الميزان

عبد الفتاح البير

عيد الضحية والفداء

يتألق تاج التضحية والفداء مساناة [1] على رؤوس المجاهدين والشهداء فى اليوم الأغر الأبلج ، يوم العيد الأكبر : فتحسسوا رؤوسكم ، وسائر ذواتكم : أنحن بالتاج خليقون ، وبشرف التضحية جديرون ؟ !

يوم أكبرته العرب فى الجاهلية ، وكرمه الاسلام علماً خفاقاً ، وجعله كأساً دهاقاً يشرب منه المسلمون أطايب القربة والتضحية : أليس الاسلام « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » ؟ إفرحي أيها العيد مرتين :

فيه تقدم سيد المضحين ابراهيم ابن تارخ [2] وقد بلغ من الكبر عتياً . بولده وفلذة

---

(١) كل سنة (٢) والد سيدنا ابراهيم واسمه آزر